

القَصَصُ الدِّيْنِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

العرب في فرنسا

عبد الحميد جودة السحار

٧

لم يكتفِ سُليمانُ بنُ عبدِ الملكِ بنكِبةَ موسى في
 شخصيه ، حتى نكبَ جميعَ أولاده ؛ فأمرَ محمدُ بنُ
 يزيد ، أميرَ إفريقية ، بأخذِ عبدِ الله بنِ موسى بنِ
 نصير ، وتغذيته ، واستئصالِ أموالِ بني موسى ؛
 فسجنه محمدٌ وعذبه ، ثم قتله . ولم يَعِشْ سُليمانُ بنُ
 عبدِ الملكِ بعدَ ذلكَ طويلاً ، ولم ينعمِ بالملكِ
 ورفاهيته ، فقد مات شاباً ، وأصبحَ عمرُ بنُ
 عبد العزيزِ أميرَ المؤمنين .

كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يرى أنَّ خُطوطَ المسلمينَ
 قد امتدَّت ، وكانَ رأيُه انتفالَ الغزاةِ الذينَ فتحوا
 الأندلسَ منها ، لانقطاعهم عن المسلمين ؛ ولكن لم
 يُصادِفْ ذلكَ الرَّأْيُ قبولا ، فكيف يتركُ المنتصرونَ

أَرْضًا قَدْ فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، هِيَ الْجَنَّاتُ الَّتِي وَعَدَ
اللَّهُ بِهَا الْمُتَّقِينَ ؟

وَلِيَّ امْرَأَةِ الْأَنْدَلُسِ السَّمُحُ بْنُ مَالِكِ الْخَوْلَانِيِّ ،
وَأَمْرَهُ الْخَلِيفَةُ عَمْرُ بْنُ يُخْمَسَ الْأَرَاضِيِّ ، وَيُخْرِجُ
مِنْهَا مَا كَانَ عَنُودَ ، خُمُسًا لِلَّهِ مِنْ أَرْضِهَا وَعِقَارِهَا ،
وَيَقْرَأُ الْقُرَى فِي أَيْدِي غَنَائِمِهَا ، بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ
الْخُمُسَ ، وَأَمْرَهُ بِأَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْأَنْدَلُسِ
وَأَنْهَارِهَا .

كَانَ السَّمُحُ مُدَبِّرًا حَكِيمًا ، وَقَائِدًا بَاسِلًا ،
وَسِيَاسِيًّا حَازِمًا ، رَأَى أَنَّ عَصِيَّةَ الْعَرَبِ لَا زَالَتِ
تَسُودُ الْأَنْدَلُسَ ؛ فَالْمُشَاحَنَاتُ قَائِمَةٌ بَيْنَ الْيَمْنِيَّةِ
وَالْمُضَرِّيَّةِ ، وَالْقِتَالُ دَائِرٌ بَيْنَ الشَّامِيِّينَ وَالْبُرْبُرِ ، وَأَنَّ
الْمَسِيحِيِّينَ الْمُنْهَزَمِينَ قَدْ كَوَّنُوا فِي شِمَالِ الْأَنْدَلُسِ
عِصَابَةً ، وَكَانُوا ذَوِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ، فَشَارُوا بِالْعَرَبِ
ثَوْرَةَ الْأَسُودِ ، وَأَبَوْا إِلَّا الدَّفَاعَ عَنْ دِينِهِمْ وَوَطَنِهِمْ ؛

فرأى أن يسوس مملكته الفائزة بالحزم .

كان عمرُ بنُ عبد العزيز شديدَ الخوفِ على الإسلام ، فهاهنا بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين في تلك البلاد ، واستشعرَ من بقائهم بين أظهر المسلمين خطراً شديداً ، فكتب إلى السَّمُحِ بإجلاء مَسِيحِي إسبانيا وجنوب فرنسا إلى إفريقية ، حيث لا يكون من وجودهم خطرٌ على الدولة الناشئة .

فكتب السَّمُحُ إلى أمير المؤمنين ، عمر بن

عبد العزيز :

« إِنَّ الإِسْلَامَ يَنْمُو وَيَنْتَشِرُ ، وَتَمْتَدُّ شِمَارِيخُهُ فِي الأَنْدَلُسِ ، وَسَرَعَانْ مَا تَدِينُ هَذِهِ الْبِلَادُ جَمِيعُهَا بِدِينِ الإِسْلَامِ » .

ورأى السَّمُحُ بنُ مالكٍ أن يشغل الناسَ بالغزوات ، حتَّى تَسْتَنِيَمَ الْفِتْنُ ، وَتَخْلُصَ لَهُ وَجُوهُ النَّاسِ .

عَبَّ السَّمْحُ جُيُوشَهُ ، وَسَارَ بِهَا قَاصِدًا فَرَنسَا ؛
 فَحَاصَرَ أَرْبُوعَةَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا ، وَشَحَنَ الْمَدُنَ
 الْمُجَاوِرَةَ لَهَا بِالْمُقَاتِلَةِ ، ثُمَّ زَحَفَ صَوْبَ « طَلُوزَةِ » ،
 وَكَانَتْ عَاصِمَةَ أَكْتِيَانِيَّةٍ ، فَنَصَبَ الْمُنْجَنِّقَاتِ وَسَائِرَ
 آلَاتِ الْحِصَارِ ، وَضَيَّقَ الْحِنَاقَ عَلَيْهَا ، حَتَّى كَادَتْ
 تَخِرُّ سَاجِدَةً تَحْتَ أَقْدَامِهِ .

رَأَى « أَوْد » دُوقَ أَكْتِيَانِيَّةٍ أَنَّ سَقُوطَ تِيلُوزِ
 (طَلُوزَةِ) فِي أَيْدِي الْعَرَبِ ، سَيُهْدَدُ سُلْطَانُهُ ،
 وَيَجْعَلُ فَرَنسَا كُلَّهَا تَحْتَ رَحْمَتِهِمْ ، فَرَاخَ يَجْمَعُ
 الْجُمُوعَ وَيَحْشِدُ الرُّجَالَ ، وَيَثِيرُ الْهَمَمَ ؛ حَتَّى حَشَدَ
 جَيْشًا عَظِيمًا ، انْطَلَقَ بِهِ لِنَجْدَةِ تِيلُوزِ .

أَقْبَلَ « أَوْد » بِجَيْشٍ يَسُدُّ الْفُضَاءَ ، حَتَّى إِنَّ الْغُبَارَ
 الْمَتَطَايِرَ مِنْ زَحَفِ أَقْدَامِهِمْ ، كَانَ يُغْطِي عَيْنَ

الشَّمْس ، فرأى السَّمْحُ أن يَجْمَعَ جُنُودَهُ ، وأن
يتأهَّبَ لِلْقِتَالِ المَرِيرِ ، الذى سِيدُورُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
الَّذِينَ أَجْهَدَهُمْ حِصَارُ الْمَدِينَةِ ، وَالْجَيْشِ الْقَادِمِ لِلذُّودِ
عَنْ أَعْرَاضِهِمْ ، وَدِينِهِمْ ، وَحُرِّيَّتِهِمْ ، وَأَمْنِ بِلَادِهِمْ .
وَرَاخَ السَّمْحُ يَتْلُو : « إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ
لَكُمْ » . وَبَدَأَ الْقِتَالُ ، وَمَشَى الرَّجَالُ إِلَى الرَّجَالِ ،
وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ رَهِيبةً ، فَبَدَأَ كَأَنَّمَا قَدْ مَشَتْ الْجِبَالُ
إِلَى الْجِبَالِ ، وَرَاخَ السَّمْحُ يُخَمِّسُ الْمُسْلِمِينَ ،
وَيَذَكِّرُهُمْ بِأَفْضَلِ مَا فِيهِمْ ، وَيَشْدُو عَلَى الْأَعْدَاءِ ،
وَيُسْرِعُ إِلَى صَفْوَفِهِ الَّتِي يَذُبُّ فِيهَا الْوَهْنَ ، يَشْدُو
الْأُزْرَ ، وَيَرْتَقِي الْفَتْقَ ، وَيُبَشِّرُ الصَّابِرِينَ مِنْهُمْ بِمَا
وَعَدَهُمُ اللَّهُ مِنْ جَنَّاتٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ .

وَطَفِقَ السَّمْحُ يَجُولُ فِي الْمِيدَانِ كَالْأَسَدِ ، وَسِيفُهُ
يَقْطُرُ دَمًا ، وَيَحْمِلُ عَلَى الْعَدُوِّ حَمْلَ الصَّنَادِيدِ ؛ وَفِيمَا

هو في صَوْلَتِهِ ، وَجَوْلَتِهِ ، أَصَابَتُهُ طَعْنَةً ، خَرَّ بِهَا
صَرِيحًا عَنْ جَوَادِهِ .

٣

رَأَى الْمُسْلِمُونَ قَائِدَهُمْ مُجَدِّلاً ، وَهُجُومَ « أَوْد »
بِرَجَالِهِ الْمُسْتَبْسِلِينَ ، فَفَتَّ ذَلِكَ فِي أَعْضَادِهِمْ ،
وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَتَرَكُوا قَتْلَاهُمْ فِي الْعَرَاءِ ؛
وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَادَ الْأَمْرُ يَنْقَلِبُ
إِلَى هَزِيمَةٍ نَكْرَاءٍ ، لَوْلَا أَنْ تَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيُّ
يَقُودُ الْجَيْشَ ، وَيَلْمُ شَعَثَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَعُودُ بِهِمْ
سَالِمِينَ إِلَى أَرْبُونَةَ .

وَشَاعَ خَبَرُ هَذِهِ الْمَوْقِعَةِ ، فَذَبَّتِ الْحَمَاسَةُ فِي
قُلُوبِ أَهَالِي « اللَّانْقِدُونَ » وَ « الْبِرَالَةِ » ، وَهَبُوا
لِيَثُورُوا عَلَى الْعَرَبِ ، وَيَسْتَعِيدُوا حُرِّيَّتَهُمْ . وَلَكِنْ
الْعَرَبُ كَانُوا مُتَحَصِّينَ فِي أَرْبُونَةَ ، وَقَدْ جَاءَتْهُمْ
الْإِمْدَادَاتُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ، فَعَادُوا يَشْنُونَ الْغَارَاتِ

منها على البلاد المجاورة ؛ وراحت جيوشهم تتقدم ،
وتنتقل من نصر إلى نصر ، فعاد للعرب هيبتهم ،
وراح أهالي البلاد يترقبون الفرصة ليشعروا ثورتهم ،
ويخرجوا العرب من ديارهم .

وظلَّ « أود » دوق أكتيانية يتجنب القتال ، لأنَّ
غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ،
ولكنه كان يخشى أن شغل بحرب العرب ، أن ينتهز
شارل مارتل هذه الفرصة ، ويقتطع بعض أجزاء
إمارته ، ويضيفها إلى مملكته .

٤

عُيِّنَ عيدُ الرحمن الغافقي واليا للأندلس ، في صفر
سنة ١١٣ هجرية (أبريل سنة ٧٣١ م) وكان من
رُعماء اليمانية ، وكبار القواد . بدأ ولايته بزيارة
الأقاليم ، وتنظيم شئونها ، واهتم بالجيش ، فأنشأ
فرقا من البربر ، أسند قيادتها إلى قواد من العرب .

وكاد الأمرُ يستبُّ لعبدِ الرَّحْمَنِ ، لولا أنَّ قائدًا
من قُوَادِ البربرِ ، هو عثمانُ بنُ أبي نَسْعَةَ ، وكان
يحْكُمُ الولاياتِ الشَّماليةَ ، قد أَحْنَقَهُ توليةُ عبدِ
الرَّحْمَنِ ، فقد عُيِّنَ واليًا قَبْلَهُ ، ولكن لم تَدُمِ ولايتهُ
أكثرَ من ثلاثِ سنواتٍ ، ثمَّ عُيِّنَ عبدُ الرَّحْمَنِ .
كان الخِلافُ يشتَجِرُ بينَ العربِ والبربرِ منذ
الفتحِ ؛ فالبربرُ يحْقِدُونَ على العربِ ، لأنَّهم كانوا
يتولَّونَ المناصبَ الرَّفِيعَةَ ، بينما قامَ البربرُ بحملِ جُلِّ
أعباءِ الفَتْحِ .

فَكَرَّ ابنُ أبي نَسْعَةَ في الاستِيعانَةِ « بأود » أميرِ
أَكْتِيَانِيَةِ ، لِيَشُقَّ عَصَا الطَّاعَةِ على عبدِ الرَّحْمَنِ ،
عسى أن تَعُودَ إليه إمَارَةُ الأندلسِ ، فسعى إليه .
ورحَّبَ « أود » بهذا التَّقَرُّبِ ، فقد كانَ يَخْشَى
جيوشَ شارلِ مارتلِ ، ورأى في مُهادَنَةِ العربِ
فرصةً للتَّفَرُّغِ لشارلِ .

وتزوج ابن أبي نَسْعَةَ ابنة « أود » فوثقَ ذلك عُرَا
التَّحَالُفِ بَيْنَ الدُّوقِ وابنِ أبي نَسْعَةَ . وارتابَ
عبدُ الرَّحْمَنِ في أمرِ عَثْمَانَ بنِ أبي نَسْعَةَ ، فَبَعَثَ
جَيْشًا إلى الشَّمالِ ، وما إن سَمِعَ عَثْمَانُ بِنَا هذا
الجيشِ ، حتَّى فرَّ من « بويكارد » على البرينيه ، إلى
شُعْبِ الجبالِ الدَّاخِلِيَّةِ ؛ فقاتله قائدُ عبدِ الرَّحْمَنِ ،
وراحَ يفتِّى أثره من صَخْرَةٍ إلى صَخْرَةٍ ، حتَّى قَتَلَهُ
وهو يُدافعُ عن نفسه ، وأسِرتْ زَوْجَتُهُ لاميچيا ،
وأرسلَتْ إلى دِمَشقَ .

رأى « أود » ما حلَّ بِخَلِيفِهِ وصِهْرِهِ ، فراحَ يجمعُ
جُموْعَهُ ، ويتأهَّبُ لِلنِّزَالِ ، ورأى عبدُ الرَّحْمَنِ ذلكَ
التَّأهَّبَ ، فجمعَ جُيُوشَهُ وسارَ نحوَ الشَّمالِ ، لِيُشارَ
لِمَقْتَلِ السَّمَحِ ، وَلِيَفْتَحَ فرنسا ، ويحتاحَ أوربًا .
انطلقَ عبدُ الرَّحْمَنِ إلى الشَّمالِ ، في جيشٍ لم يجمعَ
المسلمونَ مثله ، ودخلَ فرنسا في سنة ٨٣٢ هـ ،

وزحفَ إلى مدينة « آرل » ، الواقعة على نهر
الرُّون ، ونشبت معركة رهيبة ، يشيبُ من هولها
الوليد ، انتهت بانتصار المسلمين ، وتقهقر « أود »
وجنوده .

وعبرَ عبدُ الرحمن نهر الجارون ، وانتشرَ في
السَّهل الممتدَّ بين الرُّون شرقاً ، وخليج وسقونيا
غرباً ، وبين اللوار شمالاً ، ونهر الجارون جنوباً .
وحاولَ « أود » أن يقفَ في سبيل ذلك السَّيلِ
المتدفِّق ، ولكنه هُزمَ شرَّ هزيمة ، وفرَّ في نفرٍ من
أصحابه إلى الشمال .

وقفلَ عبدُ الرحمن عائداً نحو الرُّون ، واختَرقتِ
الجيشُ الإسلاميةُ برجونيا ، واستولت على ليون
وبيزانسون ، وبعثَ سراياه فبلغت سانس ، التي
لا يفصلُ بينها وبين باريس إلا مائة ميل فقط .

توغَّلت الجيوشُ الإسلاميةُ ألفَ ميل ، من جبل

طارق حتى شطآن اللوار ، وتفرقت جيوش « أود »
أيدي سبا ، وهام أود على وجهه ، ولم يجد أمامه إلا
عدوه القديم « شارل مارتل » ، فانطلق إليه ،
يلتمس منه النجدة والعون .

٥

كان شارل مارتل قد جمع جيشا ضخما من
الفرنج ، ومن العشائر الجرمانية والعصابات المرتزقة
فيما وراء الرين ، وكان الجند نصف غواة ،
يتشحون بجلود الذئاب ، وتهدل شعورهم فوق
أكتافهم العارية .

سار شارل مارتل في جيشه الجرار نحو الجنوب ،
لملاقاة عبد الرحمن ، الذي كان يلقي الرعب في
قلوب أهل المدن التي ينزل بها . ولم يسمع عبد
الرحمن بخروج شارل لقتاله ، فلم يتأهب للمعركة
الفاصلة بين العرب والفرنج ، بين الشرق والغرب .

انتهى الجيش الإسلامي في زحفه إلى السهل الممتد
بين مدينتي بواتيه وتور ، واستولى المسلمون على
بواتيه ، ثم هجموا على تور ، الواقعة على ضفة
الوار اليسرى ، وسرعان ما كانت ملك يمينهم ،
كلمتهم فيها هي العليا .

وبلغ شارل مارتل نهر الوار ، دون أن يشعر
المسلمون بمقدمه ، فلما هم عبد الرحمن أن يفتح
الوار ؛ لملاقاة أعدائه ، على الضفة اليمنى ، إذا
بجيش شارل قد أقبل بجموعه الجرارة ، فلم يجد
عبد الرحمن بداً من العودة إلى السهل ، والتأهب
للموقعة ، التي أرغمه شارل على خوض غمارها .
عبر شارل الوار غرب تور ، وعسكر بجيشه إلى
يسار الجيش الإسلامي ، الذي كان يغص بالسبي
والأسرى والغنائم وثروات فرنسا ، وقدر
عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على رجال جيشه ،

فحاولَ عَبَثًا أَنْ يُقْنِعَهُمْ بِالتَّخَلُّصِ مِنْ بَعْضِهَا ، وَلَمْ
يَشْتَدَّ فِي أَمْرِهِ خَشْيَةُ التَّمَرُّدِ وَالْعِصْيَانِ .

وَاشْتَعَلَتْ نِيرَانُ الْحَرْبِ ، وَتَقَارَعَتِ السُّيُوفُ ،
وَمَشَى الرَّجَالُ إِلَى الرَّجَالِ مَشَى الْوُغُولِ ، وَارْتَوَتْ
سَهُولُ فَرَنْسَا بِالذَّمَاءِ ، وَانْقَضَتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ وَرَحَى
الْحَرْبِ دَائِرَةً ، وَالْأَرْوَاحُ تُزْهِقُ ، وَالْأَجْسَادُ تَهْوِي
عَنِ الْخِيُولِ ، وَأَنَائِتُ الْجَرْحَى تَمْتَرُجُ بِصَهِيلِ الْخِيُولِ ،
وَصَلِيلِ السُّيُوفِ ، وَأَقْبَلَ الْيَوْمُ النَّاسِعُ وَالْقِتَالُ دَائِرُ ،
كُلٌّ مِنَ الْجَيْشَيْنِ ثَابِتٌ فِي مَكَانِهِ لَا يَزُولُ ، وَحِمَى
وَطِيسُ الْقِتَالِ ، وَدَبَّ الْوَهْنُ فِي صَفُوفِ الْفَرَنْجِ ،
وَكَاذَ النَّصْرِ يُلَوِّحُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَكِنْ حَدَثَ أَنْ فَتَحَ
الْفَرَنْجُ ثَغْرَةً فِي الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَانْدَفَعُوا مِنْهَا
صَوْبَ مُعَسْكَرِ الْغَنَائِمِ .

وَارْتَفَعَتْ صَيْحَةٌ فِي الْمِيدَانِ :

— أَلَا إِنَّ مُعَسْكَرَ الْغَنَائِمِ قَدْ مَقَطَ فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ .

فتركت قوة كبيرة من فرسان المسلمين المعركة ،
وتفهرقت للدفاع عن الغنائم ، وتخليصها من يد
الأعداء ، وكأنما قد نسي المسلمون ما وقع يوم
أحد لإخوانهم ، الذين كانوا مع النبي الكريم ، يوم
زالوا عن أماكنهم ، ليشتروا في الغنيمة ، فدارت
الدائرة عليهم ، وانقلب نصرهم هزيمة نكراء .

وهرع كثير من الجند للدفاع عن الغنائم ، فوقع
الاضطراب في صفوف المسلمين ، وراح عبد الرحمن
يحاول أن يعيد إلى جيشه النظام ، ولكن هيهات ،
شغلته الدنيا عما هم فيه ، فإذا بسهم من سهام
الأعداء يصيبه ، فيسقط مجذلاً ، يخط في دمايته .

رأى المسلمون مقتل قائدهم ، فذب الذعر في
صفوفهم ، وراحت سيوف الفرنج تعمل في
رقابهم ، ولكنهم صمدوا حتى أرخى الليل سدوله ،
وافترق الجيشان ، يتظران طلوع النهار ، وفي

الليل ، انسحب المسلمون ، فلم يعد هناك أمل في النصر .

وفي صبيحة اليوم التالي ، رأى أود وشارل مارتيل ، الهدوء المسيطر على المعسكر الإسلامي ، فبعث رُسُلَه ، فأخبروه أن العرب قد انسحبوا ، تاركين غنائمهم وجرحاهم ، الذين لم يستطيعوا الانسحاب ، وخشى شارل أن يكون ذلك كميناً ، فلم يتقدم خلف العرب المنسحبين ، بل اكتفى بالعودة ، بعد أن انتهت معركة « بلاط الشهداء » ، بوقف سيل العرب المتدفق ، وإنقاذ أوربا من الاحتلال الإسلامي ، وحطم أمل المسلمين في سيادة العالم كله .